فوضى الثورات

صحيح أنّ الثورات قصيرة المدى، تذهب مباشرةً إلى البعثرة والتشظّي، وغالباً ما تنتهي، ويتشتّت أفرادها ويسوحون في الفوضى، لغير سبب، أهمّها أنّ الثورة قصيرة العُمْر لم يتوفّر لها من الزمن الطويل ما يمكّنها من إنجاز البُنية المطلوبة لها، ولهذا لن تجد من الوقت ما يكفي للانتهاء من بلورة عِقد أو اتفاق بينها وبين جماهيرها .. لهذا تسقط في التذرير والانحلال، مع انتهاء دورها الذي كان عُمْره قصيراً جداً، وهذا ينطبق على ثورة 17 فبراير .

الأمر الآخر هو أنّ نظام القذافي لم يُنجِزْ ولم يخلقْ ولم يؤسّسْ لدولة عميقة ، تستطيع أنْ تحمل ما يقع على عاتقها، وتضمن الأمن والاستقرار، إذا ما غاب رأسُها، ولهذا سقطت "الدولة"، التي كانت شخصاً وليست مؤسسة، في الفوضى، في اللحظة التي اختفى فيها هذا الشخص، الذي كان يضبط الأمور بيدٍ من حديد، ويمسك بكل المُتناقضات، وكان يُفترض وجود بديل يحلّ محلّ هذا الشخص وهي الدولة / المؤسسة، التى للأسف لم تكن موجودة، فترنّحت البلاد وهَوَت في الفراغ والفوضى لمجرد سقوطه. وهذا يفسّر لماذا ذهب المختلِفون إلى السلاح لحسم مشكلاتهم في ليبيا، مثلاً، ولم يذهب التونسيون أو المصريون ! ذلك أنّ في تونس ومصر مؤسسات شبكة مجتمع مدنيّ إستطاعت أنْ تتلقّف البلد وتحمله وتحضنه وتحميه، جنباً إلى جنب الدولة العميقة .

الأمر الثالث هو أن نظام القذافي لم يسمح بوجود مؤسسات أهلية أو مجتمعية تُشكّل شبكة أمان تحمي "الدولة" إذا ما غاب رأسُها أو نظامها. لهذا، وجد الليبيون أنفسَهم مدفوعين إلى "الفوضى" لغياب الدولة العميقة أولاً،

ولانتفاء المجتمع المدني والأهلي ثانياً، ولأنّ الثورة لم تتمكّن من إنجاز البُنية المطلوبة لنفسها، حتى تكون قادرة على حمل الأمانة ثالثاً.
من هنا بدأت الفوضى ! وثمة عوامل أخرى فاقمت هذه الفوضى وساعدت عليها، منها أن "الدولة" تعني أنها وحدها مَن يحتكر سلطة التشريع وسلطة التنفيذ وسلطة القضاء، وإذا نازعها أحدٌ في ممارسة أيّ من هذه السلطات فهذا سيقود بالضرورة إلى الانفلاش والفوضى وضياع هيبة وسلطة ومركزية الدولة.. وعندها لا دولة هناك !

***

والثورة صراعٌ بين الماضي والمستقبل، للقضاء على الذكريات الكثيرة الحزينة . وإنْ تكن هناك"كذبة"في كل ما يجري، حسب ادّعاء البعض، فثمة حقيقة أكيدة وهي أن الشعب يريد الخَلاص ويريد الحرية والعدالة والمساواة، فأين غير الحقيقي أو الإدّعاء أو المزيّف أو الكذب فيما جرى ونرى !
قد تكون هناك فوضى، لكنّها، ومهما بلغتْ، لا تلغي حقيقة و طهارة الروح التي توثّبت، وحقّقت صرختَها التاريخية وتخلّصت من كابوسها الحاكم . وإذا أردنا أنْ نقضي على هذه الفوضى فعلينا أن ندرك أولاً أنّها مِن نتائج النظام السابق، ومن الصعب تبديل تربية الناس قبل تبديل كيانهم السياسي والثقافي والتربوي المُتَحَكِّم .وللفوضى أسبابٌ متعددة تظهر وتتجلّى في زمن الجَزْر والتراجع والهزيمة ،وذلك أنّ الفوضى ابنة الانحلال والخلاف والجهل والغرائز .مجتمع الثورة الذي تجاوز مرحلة الرومانسية والتكاتف والإيثار، بانتهاء زوال النظام السابق، نراه يدخل في مرحلة جديدة، وهي مرحلة الانفراط، بحيث يَحْسَب كلُّ"ثائر"بأنّه هو الذي حقّق النصر، وبالتالي من حقّه أنْ يستحوذ على كل شئ (القيادة والمال والقوة..) ومن هنا تبدأ الفوضى وتطلّ بكامل جسدها البشع، لأنّ المجتمع في هذه المرحلة يكون قد فَقَد الكثيرَ من مناعته وحصانته الأخلاقية،وبالتالي يصل المجتمع إلى شكل من أشكال الهزيمة، ونرى تجلّيات هذه الهزيمة تتمثّل في :
١ــ يفقد أفراده الثقة ببعضهم و بأنفسهم وبحضارتهم وبمستقبلهم .

٢_ يهينون رموزَهم ويحقرّونها، أو لا يستطيعون إنتاج رمز جديد .
٣_ يرتدُّ المجتمع إلى ذاته ليمزّقها .
٤_ يذهب الأفراد المختلفون والجماعات المتعاكسة إلى اللغة النهائية، بمعنى يُؤَلِّهون أنفسَهم ويشيطِنون خصومَهم، ويفقد الطرفان القدرة على الحوار والاستماع لبعضهم البعض
٥_يذهب أبناء المجتمع المهزوم للانتماء إلى الدوائر الضيّقة، أي يُعَرَّف الأشخاص أنفسهم بالطائفة أو الجغرافيا أو العِرق أو الفصيل السياسي
٦_ غالباً ما يقلّد المهزومون أعداءهم ، ويتشبّهون بنقيضهم .
٧_ تتناسخ عن الانهيار السياسي انهيارات أخلاقية وقيميّة، فيصبح الحلال مستباحاً والحرام مبذولاً، وتتعرّض المِلْكية العامة للنّهش والدَّهْم و الاعتداء .
٨_ تتعالى أصوات الإحباط ونداءات الاستغاثة والتخبّط، ويبدو وكأنَّ الانتماء إلى الثورة أو الوطن ضربٌ من العبث والحمق، وتزداد مفردات اليأس والقنوط، ويظهر وكأنَّ الأمل قد مات في الناس .
٩_ يذهب أفراد المجتمع المهزوم إلى الخَلاص الشخصي بدلَ الخَلاص العام، بحيث يبحث كلُ فرد أو مجموعة عمّا ينقذها أو يحميها أو يوفّر لها ضمانات الحياة .(للتوسّع في هذا الأمر أُنظر ما كتبه فرانتز فانون في "معذبو الأرض" وغيره)
ونستدرك لنقول إن المجتمعات الحيّة، ومنها المجتمع العربي، لا يمكن أن تصل الهزيمة فيه إلى حدّ أن يَرْفَعَ الرايةَ البيضاء،لكنها تكون هزيمة نسبيّة أو مجازيّة ومرحليّة بالضرورة .
وأعتقد أن المجتمع لما له من قوة (اجتماعية و أخلاقية) يظل قادراً على إنتاج الرادع والكابح أمام الانفلات الكامل .
وثمة سبب آخر للفوضى يتأتّى من أنّ بعض القوى أو الحركات التي تؤمن وتعتقد، لسببٍ أو لآخر، بأنها تمتلك الحقيقة وهي صاحبة الحق، نراها لا ترحم خصومها، وتطلق عناصرها الهائجين المُلقّنين، ليعيثوا قتلاً وذبحاً،

دون رحمة في صفوف خصومهم . عداك عمّا تحدثه وسائل الاتصال (الفيس بوك مثلاً) من شائعات وبلبلة ودعايات مُغرضة، باعتباره سبّورة مفتوحة لكل مَن هبّ ودبّ، أو للصالح والطالح .

والفوضى الابنة الشرعية للجهل ! وثمة مَثَل يقول : عندما تذهب ذَخيرةُ عقلك تذْهَبْ إلى الرصاص، ويقول الجاحظ : ثمة جُرأتان هما جُرأة العالِم وجُرأة الجاهل ،وفي حالتنا نرى أنّ المُسَيْطِر هو جُرأة الجاهل الذي ينتمي إلى منظومة تربويّة معطوبة أنتجتْ مَنْ على شاكلته من المُنْفَلِتين والرّعاع، الذين لا يخضعون إلاّ بالقوّة والخوف ، فإذا مازال الرادع انطلقوا كالعواصف العمياء، يهتِكون عِرْضَ كلّ شئ .أو ينتمي هذا الجاهلُ إلى قوّة عَقَدِيّة أو فكريّة غسلتْ دماغَه وجعلته أقرب إلى الآلة . وغالبا ما تكون تلك القوى العقائدية بعيدة عن جوهر دينها وعن روح ما تُنادي به العقائد عامّة، والتي يفترض أن تمنح أعضاءها ما يسمّى بالوحدة الأدبيّة، وتجعل منهم جسداً متجانساً ذا قوةٍ مهذّبةٍ، تَعي خطواتها ولا تقع في المحظور أو المحاذير.

و ربما يسعى أعداء الثورة (من الداخل و الخارج) إلى إشاعةِ كل أشكال الفوضى، ليبرّروا مرافعتهم الخائبة التي تُدين الثورة وتُشيْطِنُها بغير حق، ليوصِلوا الناسَ إلى مرحلةٍ يقولون فيها : نار النظام السابق ولا جَنّة الثورة.

وبِقَدَرِ ما تهبط الثورة وتتكرّس و تتعمّق في روح الشعب، كضرورة واجبة الوجود، بقدر ما تَخِفُّ الفوضى وتتقلّص مظاهرُها المُخيفة .

وأظنُّ أنّ الثورة الحقيقية هي التي تغيِّر طباع وأفكار مجتمعها ،أو تلك التي تبشّر بقدرتها على ذلك .

وحتى نقضي على الفوضى نحتاج إلى نظرية عوامل متعددة (إعلامية، فكرية، تربوية، ثقافية، اقتصادية) جنباً إلى جنب قوة مركزية نظيفة، تضرب بيد من حديد كلَّ تلك النتوءات، بنزاهةٍ وعدلٍ وانتماءٍ، ولديها خطّة تتكامل مع خطوات أخرى . والثورة ينبغي عليها أن تدرك بعقلها أن ثمّة حُفَراً مُمَوَّهةً يجب أن لاتقع فيها، ويبتلعها نقيضُها، مثل أنْ تقوم حكومةٌ ما بإجراء إصلاحاتٍ شكليّة وتُطْلِقِ شعاراتٍ ساطعة تؤيد الثورة قولاً وتقتلها فِعلاً،

أو أنْ تقوم الدولة العميقة بالتخلّص من بعض عناوين الخِلاف أو رموز الفساد وتُعيد إنتاج نفسها من جديد، أو تستشعر أن ثمَّة هديراً يدّق الأبواب وينبض تحت الشارع فتقوم بخطوات استباقية، غير كافية، لإجهاض أو اعتراض الثورة الحقيقة، أو تحاول أن تغيّر جلدها، أو تقدّم ذرائع مثل "العدو الخارجي"أو التعللّ بالمُمانعة القومية أو دعم المقاومة أو غير ذلك !
ونقول : إنَّ الإصلاح الحقيقي و الفعليّ هو خير نصيرٍ وسندٍ للمُمانعة ولمواجهة الأعداء الخارجيين، وإنّ الدكتاتورية والقمع والإجحاف وهدْر الكرامة والفقر ..هي مفردات تُحطّم الممانعة والجبهات القومية وكل أشكال المقاومة .

***

وندرك أنّ لكلّ ثورةٍ، في كل قطرٍ، خصوصيتها وأسبابها، وإنْ اشتركت الثورات جميعها ببعض الصفات والمزايا، أو قامت لأسبابٍ متشابهةٍ. وغالباً ما تبدأ الثورة بالاحتجاج اللفظيّ الهامس الشفوي المُمْتَعِض، وتمرّ بمراحل تعلو تدريجياً لتصل إلى إظهار الصوت، ثم الحركة، ثم تتّسع وتتشابك وتتقاطع ويرتفع منسوبُها، لتصل بفعل أدوات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام، إلى كل بيت وحيّ وشارع، فقرية ومدينة ...الخ إلى أنْ تعمّ كل البلاد.
ونعتقد أنّ المجتمعات الحيّة هي في حالة ثورة دائمة، تخفت وتشتدّ حسب الظروف ودرجة الوعي والقمع، لهذا لا تكون أيّ ثورة هي نسيج نفسها أو نتاج ذاتها، لأن الثورات تسيل على بعضها البعض وتُنْضِج بعضها البعض أيضا، وتنتقل عدوى الثورات مثل الرياح التي تُؤّوِب دون أن تعترضها حدود أو جدران .
والشعب صاحب الثورة لا تظهر ثورته للعيان إلاّ بمقدار ما يفارق غربته، بمعنى أن قمع الطغاة لا يدفع المقموعين للثورة إلاّ إذا أدركوا أنهم مقموعون، وأنّ ثمة ظُلماً يقع عليهم، وأن حقوقهم مُستَلبة، وأن من حقهم استعادة كرامتهم وحقوقهم وحياتهم، بوسائل يمتلكون ناصيتها أو يعلمونها .

وربّما نكرّر ما قاله الآخرون إذا أوضحنا أنّ جُملةً من الأسباب هي التي دفعت الشعب إلى الثورة، وغالباً ما تكون اقتصادية، اجتماعية، عقائدية، الخ .. وتنهض الثورة على أعمدة من الثقافة والفكر والوعي، وعلى متكآت تاريخية مضيئة، تحمل الشعب ليبلغ حدّ الثورة للإنعتاق والخلاص .

***

لقد عرف التاريخ أنّ الأفراد الذين وصلوا حدّ الرمزيّة والتفرّد ويمتلكون "الكرِيزْما" والمواصفات الاستثنائية، من القادة، هم مَن لعب الدور المحوريّ في قيادة العديد من الثورات، بأفكارهم أو نظرياتهم أو انخراطهم المباشر في الصفوف الأولى، وكانوا نماذج يتَرَسَّم الآخرون خطاهم .

غير أنّ ثورات الربيع العربي كان قائدُها ومُفجّرها هو الشعب مجتمِعاً، ولم يُعرف حتى اللحظة أنّ ثمة "أيقونة"/ قائداً يعود له الفضل في تفجير الثورة أو توجيهها. وأحسب أنّ غطرسة وصفاقة قوى إقليمية مُنحازة ضدّ قضايا الأمّة العربية هي التي ساعدت في إشعال فتيل الشارع العربي، وأعطتْ للعديد من القوى والأحزاب على الساحة العربية أسباباً قوية للمُناداة بإسقاط هذا النظام أو ذاك، لارتباطه الوثيق بتلك القوى، التي تستبيح الثروات والمقدّسات والكرامة القوميّة، وتسيء للعقيدة وتصِفُها بأحَطّ الألقاب والمسمّيات الدونيّة المقيتة ،إضافة إلى أنّ هذه الأنظمة الفاسقة والفاسدة تمّت الأسباب وجعلتها كافية ليخرج الشارع مطالباً بإسقاطها . ولا أجانب الصواب إذا قلت إنّ المجتمعات القادرة على الثورة هي المجتمعات التي اخْتَمَرَت وتكرّسَت تبلورت، وأصبح لها شخصيتها ولديها هوية تميّزها عن غيرها، بمعنى أنّ لديها روحاً واحدةً (وإن تنوّعت مكوّنات هذه الروح) ولها وعْياً جماعياً وسماتٍ تطبعها بالخصوصية والتميّز وتصطخب على الساحة العربية الكثيرُ من الأحزاب، والقوى والحركات التي فَقَدتْ صدقيّتها، وتكلّست وباتت مجروحة بالخمول ومهادنة النظام وسيطرة العواجيز، ولم تعد قادرة على تجديد روحها أو دمها، كما أنه تمّ اختبارها وفشلتْ بشكلٍ ذريع، وبقيتْ صورة محنَطّة أقرب إلى الظلّ أو الخيال، الذي يوظّفه النظام حسب مصلحته

. حتى أن بعض "المعارضة"، التي هي أقرب إلى الظاهرة الصوتية التنفيسية، قد تمّ صنعها في مختبرات الأجهزة الأمنية، أو قامت بتوظيفها والتحكّم فيها . ولم يَتبَقّ حزب له مشروعية أو مصداقية إلاّ القليل جداً، وهو الذي يقبع أعضاؤه في السجون أو تحت الإقامة الجبرية أو مُلاحقين في الداخل والخارج .

وتبرز هنا بعض الحركات الإسلامية، التي ظلّت محافظة على تَوهّجها لمعارضتها للنظام، أو لانسرابها في الشارع والتعاطي والالتحام معه بشكل مباشر . وهذا ما يفسّر هذا الجموح والانتصار الذي حققته بعض القوى الإسلامية الوسطيّة، بعد انتهاء الثورة مباشرةً، وقبل أن تقع في بعض المهابط والعراقيل .

أمّا القوة الأخرى الجامحة البارزة التي ظهرت، وشكلّت لُحْمَة ثورات الربيع العربي، فهي الشباب .

oberkandl.com